توحيد اللّه صفة عباد الرحمن

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد، فيا أيها المسلمون يقول الله جلَّ شأنه في كتابه الكريم : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

أيها المسلمون: نتابع التأمل في صفات عباد الرحمن، من أبرز وأهم صفات عباد الرحمن، توحيد الله وعدم الإشراك به، والتوحيد أمر اعتقادي وسلوكي، أما الاعتقاديّ: فأن يؤمن بالله وحده لا شريك له، إلهاً لا يشركه في الذات ولا في صفاته غيره، لا يعتقد بألوهية أحد سواه، أما الجانب السلوكي فهو أن لا يتصرف أي تصرف فيه عبادة لغير الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ وهو أمر خطير: بأن يوصف الأكثر بالشرك، وهو الشرك السلوكي، ويمكن أن يكون ذلك صريحاً في السجود لغير الله، كما يكون في عملٍ يؤثر فيه طاعة غير الله على طاعة الله، يؤثر طاعة النفس والهوى على طاعة الله سبحانه وتعالى، وكذلك طاعة أي مخلوق يؤثرها على طاعة الله عزَّ وجل هو لون من الشرك السلوكي، ولعل من أخطر أنواع الشرك السلوكي أن يعمل العمل الذي يُقصَد به وجه الله فيقصد به ثناء الناس وهو الرياء، والرياء شِرك يحبط عمل صاحبه، لا يوصف صاحبه بأنه كافر؛ لكنه أشرك مع الله غيره في عمل مما يؤدي إلى إحباط هذا العمل وفوات أجره.

وتوحيد الله عزَّ وجل إذا ما تحقق في حياتنا توحيداً في الاعتقاد وتوحيداً في السلوك، أعتقد أنه سيرقى بنا إلى درجات عظيمة من القبول عند الله عزَّ وجل، وليس من السهل أن تطهر قلبك من أي

شرك بحيث لا تخشى أحداً غير الله، ولا ترجو أحداً غير الله، ولا تخاف أحداً غير الله. وأن يكون توجهك في عبادتك دائما لله؛ عندما تتأمل هذا الكون وسيره، وعندما تتأمل نفسك ونظام حياتك وجسدك وخلايا هذا الجسد، وتنظر فيمن يدبر لك الأمر كله في هذا الكيان البشري الذي يتمثل فيما بين جنبيك، عندما تتأمل كل ذلك، وتدرك بكل بساطة أنه لا إله إلا الله، وأنه لا صانع ولا خالق ولا مدبر إلا الله، وعندما تدرك أنه لا خالق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار إلا الله لن تشرك بالله غيره في سلوكك، فالشرك في السلوك نتيجة لضعف الإيمان وضعف العقيدة بتوحيد الله عزَّ وجل.

والأمر الآخر الذي قرنه الله عزَّ وجل بمسألة التوحيد في قوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هو ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إنه القتل، جُمِع القتل إلى جانب الشرك، لأن خطورة القتل خطورةٌ ما مثلها؛ أشار إليها البيان الإلهي في مواضع متعددة من كتابه، وأشار إليها النبي ﷺ في كثير من الأحاديث في التحذير منها، ويكفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ القتل: تلك المشكلة التي أصبحت بسيطة في عصرنا هذا، يستهان بها فلا يبالى بسفك الدماء هنا وهناك؛ بل لقد سُلمت الأسلحة القاتلة للأطفال؛ لكي يشيع القتل في أرجاء الأرض هنا وهناك دون مبالاة بما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا وعواقب في الآخرة. ما هذه الاستهانة بأخطر ما هُدّد به الإنسان بعقوبته يوم القيامة؟ إن أول ما سيسأل عنه الإنسان غداً بين يدي الله عزَّ وجل هو الدماء، ولم يتوعد ربنا تبارك وتعالى وعيداً في كتابه على أمرٍ كما توعد على القتل عندما قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ توعده بالخلود في نار جهنم، وتوعده باللعنة، توعده بوعيد ما ورد في كتاب الله أشد منه، ومع ذلك تجد اليوم من يستهين بسفك الدماء جملة وتفصيلاً جماعات وأفرادا، من تفخيخ سيارات، وقذائف تصل إلى البيوت والمدارس والمساجد وغير ذلك، باسم الجهاد يقتل الأطفال يُقَتَّل النساء يُقتّل الأبرياء، وباسم الإصلاح يعيثون في الأرض فسادا، أي حد يمكن أن يصل بنا هذا الأمر، بأي وصف يمكن أن يوصف! وأن يوصف بأن هذا هو الإسلام، هذه أشد من الجريمة ذاتها، الجريمة جريمة، وجريمة قذرة سيئة بالغة السوء. ولكن أن يوصف بأن هذا هو الإسلام تلك هي الجريمة الأخطر، أن يُساء إلى الإسلام باسم الإسلام، وأن يتهم الإسلام بتلك الأعمال الشنيعة التي ترتكب هنا وهناك. أنا لا أعرف في تاريخ الأمة من سمى هذا العمل الذي نراه اليوم جهاداً، الذين

يرتكبون الجرائم بحق المسلمين في بورما أو في غيرها مجرمون وقتلة؛ ولكنهم لا يدعون أن هذا هو الإسلام، بل يقولون إنهم يحاربون بذلك الإسلام، أما أن يحارب الإسلام باسم الإسلام، فتلك جريمة أشنع بكثير: الوحشية التي نراها في جرائم بورما وغيرها هنا وهناك بحق المسلمين في أواسط أفريقيا أو في غيرها، جريمة لاشك في أنها في منتهى الوحشية والهمجية، وسكوت المؤسسات الدولية والمنظمات الإنسانية المزعومة على تلك الجرائم جريمة تضاف إلى جرائمهم، بينما لسان حالهم يقول:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب كاملٍ مسألة... يبحث فيها

سكوت المنظمات عنها اليوم، بينما يرفعون عقيرتهم تجاه أمور تجري في بلادنا، فتقوم لها الدنيا وتقعد دون أن يبحثوا عن مخرج، ودون أن يضعوا حلولاً؛ بل الحل أن يمدوا القتلة بالسلاح، الحل هو أن تُغذى الجريمة بوسائلها، الحل عندهم أن يتمادى العالم الذي يدعي الحضارة في إمداد تلك الوحوش البشرية بالسلاح: هذه هي المشكلة، المشكلة أن يسكتوا على إبادة شعب مسلم بكامله بأقصى وأسوأ وأقذر وسائل القتل التي لا يمكن تصورها من إحراق إلى غير ذلك، ثم ينظروا إلى خلافات في بلادنا فيغذونها ويمدون أصحابها بالسلاح والعتاد وغير ذلك، ثم يقولون: (مأساة إنسانية في سورية) نعم إنها مأساة إنسانية ترتكبها أميركا، مأساة إنسانية ترتكبها أوربة، جريمة إنسانية يرتكبها أولئك الأوغاد الذين يريدون تدمير هذه الأمة بيد أبناء هذه الأمة، يريدون أن يقتل الأخ أخاه، والجار جاره، يزينون لهم وسائل الإجرام والقتل باسم الحرية وباسم الإصلاح وغير ذلك.

آن الأوان أن يعود الناس إلى عقولهم وأن يرفضوا منطق الإجرام كوسيلة تدعى الإصلاح، كوسيلة يتذرع بها إلى الحرية، هذه المسألة أصبحت واضحة، تدعوهم إلى الحوار فيرفضون الحوار. فمنذ اليوم الأول عندما دعوا إلى الحوار رفضوا الحوار، لا في بلدنا هذا فقط، بل في كل البلاد التي أثاروا الفتنة فيها، أما سمعتم ورأيتم كيف يرفضون الحوار، لماذا؟ لأن الحوار يمكن أن يفضي إلى حقن الدماء، هم لا يريدون حقن الدماء، هم يريدون سفك الدماء، هم يريدون منكم أن تقتتلوا، يريدون منكم أن يبيد بعضكم بعضاً، يريدون منكم أن تدمروا بلادكم.

جريمة القتل أسوأ وأقذر ما يمكن أن يرتكب بين أبناء الأمة، طبعاً؛ لأن القتل يفضي إلى القتل، وهكذا، مسلسل لا ينتهي. فإذا ما تعطلت العقول قام الهرج، والهرج هو ما ترون، الهرج هو ما تسمعون،

الهرج هو هذه الفوضى المدمرة التي آلت إليها الأمة، تجردت فيها النفوس من تحكيم العقول، تجردت من الضمائر أو من المشاعر الإنسانية، أما آن لنا أن نقول: لا للقتل، لا لسفك الدماء، لا للتدمير والتخريب، تعالوا نحكّم العقول، تعالوا نفكر في مستقبل بلدنا هذا، في مستقبل بيتك في مستقبل أسرتك، في مستقبل مجتمعك، في مستقبل أطفالك. الذي يعالج المسألة بالقتل يفضي القتل إلى بيته، يفضي القتل إلى أسرته، وكم قلنا هذا الكلام، لكن لم يلق هذا الكلام أذناً صاغية، حتى أفضى بنا الأمر إلى هذه الحالة التي نحن فيها.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾حرم الله قتل الأبرياء، قتل الأطفال النساء، والأبرياء هم الذين لا يجوز لك قتلهم أياً كانوا.

والوصف الذي بعده ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ الشرك والزنا بينهما القتل، ثلاثة من أسوأ وأخطر الجرائم التي ينبغي أن نطهر مجتمعنا منها: الشرك، والقتل والإرهاب، والزنا؛ كلها في مثابة واحدة، الانحراف الأخلاقي، والروح المتوثبة إلى الإرهاب والقتل، والشرك بالله: كل ذلك بمثابة واحدة: وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يلقى لهلاك يلقى الجزاء يلقى العقوبة ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ الخلود في نار جهنم: تمتع اليوم بشفاء الغليل، تمتع بقتل الأبرياء، تمتع بالنظر إلى الموبقات وممارسة الفواحش.

لاحظوا أيها المسلمون أن ربنا تبارك وتعالى جاء هنا بالوصف السلبي، ولكن عندما نهى قال مرة ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ﴾ وقال في أخرى ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾ ذلك لأن المحرم هو ما يؤدي الفعل، و هو كل ما يفضي إلى ذلك الفعل؛ لأنك إذا اتخذت الأسباب وبدأت بالمقدمات فإن النتيجة سوف تقع فيها لا مناص. لأنك وضعت قدمك على مزلق يفضي بك إلى تلك النتيجة، والقرب من الزنا يكون بالتبرج، يكون بالنظر، يكون بالاختلاط المحرم، يكون في كل ما يزين للنفوس الضعيفة الوقوع في تلك الفاحشة. لم يحرم الله عزّ وجل عليك النتيجة ويدعك ترتكب المقدمات التي تفضي إليها بسلوكك، الحكمة الإلهية اقتضت أن يحرم عليك كل ما يفضي بك إلى تلك النتيجة، ولذلك قال ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ﴾ وقال ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾؛ الذين ينادون بالحرية يسولون للمرأة التبرج على النحو الذي قد شاع في المجتمعات هنا وهناك، هم إنما يريدون أن تكون المرأة في متناول الذئاب البشرية وأن تضعف

النفوس في مقاومة نزواتها وشهواتها، فلا هي تستطيع أن تقاوم، ولا هو يستطيع أن يقاوم. المحرم: هو أن تسلك السلوك الذي من شأنه أن يفضي إلى الفاحشة؛ أما الفاحشة فهي نتيجة لابد منها عندما تكون الأجواء قد أتاحت للنفس التواقة إلى شهواتها أن تمارس تلك الشهوات.

﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ﴾ إلا من تاب من الشرك بالتوحيد، ومن الشرك السلوكي بالإخلاص لله عزَّ وجل، ومن القتل بأن يغمد سلاحه ويرفع كل وسائل القتل التي يستخدمها ويعود إلى رشده... إلى السلام بكف يده عن ممارسة الإرهاب، يكف يده عن ممارسة أي انتهاك لحرمة الدم، لحرمة سلامة الإنسان في هذا المجتمع وفي كل مجتمع.

سلاحك وجد لتقاتل به العدو لا من أجل أن تقاتل به أخاك، سلاحك وجد من أجل أن تقاتل أولئك الذين يغتصبون المسجد الأقصى ويقتلون أبناءه في القدس، سلاحك من أجل أن تقاتل أولئك الذين يأتون فيحتلون بلادك، سلاحك استخدمه آباؤك وأجدادك من أجل طرد الفرنسيين، ومن قبل من أجل طرد الصليبيين، لا من أجل أن تقتل أخاك لا من أجل أن تقتل جارك، لا من أجل أن تقتل قريبك لا من أجل أن تقتل صديقك، سلاحك تصنع به المجد لا لتصنع به الخراب، لتصنع به العزة لا لتصنع به الذل، لتصنع به الحضارة لا تصنع به التخلف والهمجية، من أجل بناء وطن، لا من أجل تدمير الوطن.

إلا من تاب فأغمد السلاح وعاد إلى رشده وطهر يداه من دماء الناس: ويتوب الله على من تاب، حقوق الناس لا تضيع، لكن الله عزَّ وجل قال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ هكذا قال ربنا تبارك وتعالى وهنا قال الكلام ذاته قال : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ إلا من غيّر... ومسألة التغير مسألة يطول الحديث عنها، لعل هذا الوقت يضيق المجال فيه أن أتحدث عن التغيير، التغيير في الحياة، التغيير في السلوك، التغيير في التفكير، التغيير في العلاقات، .... أن نسلك طريق البناء سبيل الرحمة سبيل الإنسانية سبيل التراحم والتعاون والتآزر، التغيير حديث قد يطول بنا إذا ما بدأنا به فنرجئه.

عندما يدعون أنهم يريدون الخير لهذا الوطن وأنهم يجاهدون، ثم نجد أسلحتهم تتجه من بعضهم إلى البعض الآخر، يقتتلون على ماذا؟ إذا كانوا يقصدون هدفاً واحداً فلماذا يقتتلون؟ فلماذا يتناحرون؟ يقتل البعض منهم المئات من البعض الآخر لماذا؟ لأن منهج القتل هو منهج الإجرام، هم لم يأتوا للبناء؛ وإنما جاؤوا للهدم. واضح كلامي ترونه وتسمعونه كيف يقتتلون، وكلهم دعواهم واحدة، يتناحرون لأن ادعاءهم كاذب. لأنهم شنوا حرباً على بلدنا بالوكالة، هم وكلاء في محاربة هذا الوطن، في محاربة هذه الأمة بل في محاربة هذا الدين، هم وكلاء عن غيرهم وفّر غيرُهم دماءه وجعلهم الضحية الرخيصة بغبائهم وحماقتهم.

خطبة الجمعة 18-4-2014